عن الخلافة وأوهامها

ما أن أعلنت نتائج انتخابات مجلس الشعب المصرى حتى تحدث المرشد العام لجماعة الإخوان الدكتور محمد بديع فى حديث صحفى معلنا أن الإخوان يسعون لاقامة الخلافة الاسلامية، وأنها فرض دينى وانها سبيل كى تتسيد جماعة الإخوان العالم.

وما إن اتسعت رقعة النشاط السلفى حتى اتسعت رقعة الحديث عن الخلافة والقول بأنها فريضة، وما لم ينهض المسلم بالدعوة إليها فهو آثم، الأمر الذى يدفعنا إلى الكتابة في هذا الأمر، ولا نزعم قبل أن نمضى فى الكتابة أننا نمتلك القول الفصل، ولكنها محاولة لفتح حوار حول هذا الأمر ربما ينهض به من هم أجدر منا بفهمه والإحاطة بأمره.

ونبدأ كالعادة بتعريف كلمة الخلافة، وفى القاموس الوسيط نقرأ: "الخلافة هى الإمامة، والخليفة هو المستخلف والسلطان

الأعظم" لكن الشائع فى القواميس الأخرى هو : "أن الخلافة هى رئاسة عامة للمسلمين فى كل الدنيا" بمعنى "أنه لا يجوز لبلد أو جماعة من المسلمين أن ينفردوا باختيار الخليفة، بل يتعين أن يبايعه المسلمون فى كل بقاع الأرض. ومن لا يبايعه يكون آثماً" "ومن مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية".

وفور وفاة الرسول الكريم ثارت هذه المسألة، وتطلع آل البيت إليها خاصة على بن أبى طالب، لكن عمر بن الخطاب خشى أن يتحول الأمر إلى تقليد، ثم إلى عرف، فقال لابن عباس "إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا فى السماء شمخاً بذخاً" (ابن أبى الحديد- شرح نهج البلاغة- جزء ٢- صـ٩).

وأتى أبوبكر بعد ملاسنة شديدة وربما قاسية مع سعد بن عبادة الذى طالب بها للأنصار ثم طالب ببعض منها لهم "لكم أمير ولنا وزير". ومنذ اليوم الأول عرف أبوبكر حدوده فوقف فى الناس قائلاً: "أما والله ما أنا بخيركم، ولقد كنت لمقامى هذا كارها ولوددت أن فيكم ما يكفينى" ثم "أتظنون أنى أعمل فيكم بسنة رسول الله؟

إذن لا أقوم بها. إن رسول الله كان يعصم بالوحى، وكان معه ملك، وإن لى شيطاناً يعترينى. ألا فراعونى وإن زغت فقومونى" (أبوجعفر الطوسى- تلخيص الشافى- الجزء الأول صـ١٠). وهكذا ومنذ اليوم الأول تحول الحكم والأحكام إلى مسألة إنسانية فالوحى انقطع. وحكم الحكام بالرأى أو بالدقة بما يعتقدون هم أنه مستمد

من الشرع. لكن هذا الاعتقاد فعل إنسانى يحتمل الخطأ والصواب. وتوالى الخلفاء الواحد تلو الآخر، ولكل منهم رأيه ورؤيته وممارساته التى تختلف عن الآخرين. ويورد الإمام السيوطى أن عبدالملك بن مروان (حكم ٧٣ هجرية) خطب فى الناس يوم ولايته قائلاً "أيها الناس: لست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا بالخليفة المداهن (معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يزيد) ألا أنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم. والله لا يفعلن أحد فعلة إلا وجعلتها فى عنقه، والله ما يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه".

أما قصة عبدالملك بن مروان هذا، فتبدأ بأنه انتقل إلى المدينة شاباً وأقام فى مسجد الرسول يقضى يومه وليله يصلى ويقرأ القرآن، حتى سموه "حمامة المسجد"، واستبشر الناس خيراً إذ تولى الخلافة، فإذا به يقول ما قال "والله ما يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه".

وأول من قال بالخلافة الخليفة معاوية ورجاله فمعاوية يزعم "والله ما أردتها لنفسى لولا أنى سمعت رسول الله يقول: يا معاوية إن حكمت فاعدل". ثم ابتدع رجاله حديثاً مكذوباً "الخلافة بعدى ثلاثون عاماً وبعدها ملك عضوض" وإذ أوفى الثلاثين عاماً وقف ابن المقفع فى مجلسه قائلاً "خليفة رسول الله هذا وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد، ومن أبى فهذا وأشرع سيفه فى وجه الجميع". ثم تحدث فقهاؤه عن مشروعية ولاية المتغلب. ودخلوا

بالمسلمين إلى زمان ما سمى بالخلافة والخلفاء، لكن المسلمين كانوا أكثر ذكاء فسموا الخلافات بمسماها الحقيقى، فنسبت الخلافات إلى العصور والأسماء البشرية، الخلافة الأموية- العباسية- السلجوقية- العثمانية، ويبقى بعد ذلك حقيقة الموقف الفقهى من الخلافة. ونقرأ:

- الشهرستانى يقول فى كتابه "نهاية الإقدام" "إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد".

- الجرجانى يقول فى "شرح المواقف" "إن الخلافة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين".

- الإمام الغزالى يقول فى "الاقتصاد فى الاعتقاد" "الإمامة ليست من المعتقدات".

- أبوحفص بن جميع يقول فى "عقيدة التوحيد" "إن الإمامة مستخرجة من الرأى وليست مستخرجة من الكتاب والسنة".

- الآمدى يقول فى "غاية المرام فى علم الكلام" "واعلم أن الكلام فى الإمامة ليس من أصول الديانات، بل لعمرى فإن المعرض عنها لأرجى حالا من الواغل فيها، فإنها لا تنفك عن التعصب والأهواء وإثارة الفتن والشحناء".

ويستند كل هؤلاء الفقهاء إلى فهم صحيح لآيات القرآن الكريم. فالكثيرون من دعاة الخلافة يستندون إلى الآية الكريمة "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله" (النساء- ١٠٥) لكن

البيضاوى فى تفسيره والقرطبى فى "الجامع لأحكام القرآن" يؤكدان أن كلمة "تحكم" هنا كانت تعنى أن تكون قاضيا بينهم. ويؤكد أغلب الفقهاء أن كلمة "الحكم" قد أتت فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات بمعنى الحكمة أو الرأى السديد، ويستدلون على ذلك بآيات عدة منها "يا يحيى خذ الكتاب بقوة. وآتيناه الحكم صبياً" (مريم: ١٢) ولم يكن يحيى حاكماً بل منحه الله الحكمة وهو صبى.

وآية أخرى عن عيسى بن مريم نقرأ فيها "ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى" (آل عمران- ٧٩). ولم يكن السيد المسيح حاكماً. وكذلك لوط "ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً" (الأنبياء: ٧٤) وموسى أيضاً "ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً" (القصص-١٤).

وكلما أطلنا فإننا سنكتشف أن البعض يوهمنا بضرورة "الخلافة" والإيمان بها وأنها شعيرة من شعائر الإسلام لا مناص منها. لكن كل ما سبق وأضعاف أضعاف غيره تنفى نفياً قاطعاً فكرة الحاكم المطلق والخليفة المتحدث باسم السماء والحاكم بأمرها.

ويبقى أن نشير فى كلمة قادمة إلى النتائج المأساوية لحكم الخلافة والخلفاء.

ونكتشف منذ البداية أن اسم الخلافة والخليفة صناعة انسانية استهدفت مصالح دنيوية لا علاقة لها بالدين.

ويروى ابن الأثير فى كتابه "الكامل فى التاريخ" حواراً جرى بين عمر بن الخطاب فى أول أيام ولايته وبين المغيرة بن شعبة فقال "ناداه

المغيرة: يا خليفة الله فرد عمر: ذاك نبى الله داوود، فقال المغيرة: يا خليفة رسول الله، فأجاب عمر ذاك صاحبكم المفقود (يقصد أبوبكر) فقال المغيرة إذن نناديك: يا خليفة خليفة رسول الله فقال عمر: ذاك أمر يطول، فما كان من المغيرة إلا أن ناداه يا عمر، فقال عمر: لا تبخس مكانى شرفه، أنتم المؤمنون وأنا أميركم"، وبعدها استقرت تسمية "أمير المؤمنين" لكن مقتل عمر بن الخطاب فتح الباب واسعاً حول رئاسة المسلمين وتبدى هذا الصراع سياسياً وأحياناً قبلياً وسيطرت المصالح الشخصية والقبلية على الخلاف والمختلفين لكنها فى كل الأحوال اتخذت طابعاً دينياً ليكتسى الأمر بالقدسية التى تدفع الإنسان للقتال والتضحية بحياته.

لكن الكثيرين من الصحابة رفضوا الوقوع فى هذا الفخ بما دفع الصحابى الزاهد أبو زر الغفارى إلى الصياح قائلاً "والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هى من كتاب الله ولا سنة نبيه. والله إنى لأرى حقاً يُطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى".

أما الصحابى سعد بن أبى وقاص فقد رفض الاشتراك فى هذا القتال معلناً "والله لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان وشفتان فيقول هذا مؤمن وهذا كافر". ولأن الصراع شخصى وقبلى فقد تخطى كل الحدود، فيزيد أرسل جيشه إلى المدينة ليخضع سكانها ويفرض عليهم البيعة، وأباح "المدينة" لجنده ثلاثة أيام فقتلوا وسلبوا ونهبوا ويقال إنهم افتضوا بكارة ألف فتاة وتهلل يزيد فرحاً وارتد إلى قبليته ذات الصبغة الجاهلية، فتذكر موقعة بدر حيث وقف

سكان المدينة من الأنصار (الأوس والخزرج) مع الرسول فهزموا جيش أبى سفيان جد يزيد وأنشد :

ليت أشياخى ببدر شهدوا
فزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً
ولقالوا ليزيد لا فشل

وإذ يتفرعن الخليفة ويملى إرادته بحد السيف يكون دوماً بحاجة إلى سند دينى يبرر به ظلمه وقهره للرعية ويتصدر هؤلاء أبو بكر الطرطوشى الذى يبرر استبداد الخليفة قائلاً "فالله سبحانه وتعالى جبل الخلق على عدم الإنصاف فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر، ولم يستقر لهم معاش ومن الحكم التى وردت فى إقامة السلطان أنه من حجج الله على وجوده سبحانه، ومن علاماته على توحيده. العالم كله بأسره فى سلطان الله كالبلد الواحد فى يد سلطان الأرض" إنه يعتبر أن استبداد الخليفة بالسلطة والسلطان هو بذاته دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى، ونمضى مع الطرطوشى لنقرأ "وإذا كان الخليفة قاهراً لرعيته كانت المنفعة به عامة، وكانت الدماء فى أُهبها محقونة، والحرم فى خدورها مصونة، والأسواق عامرة والأموال محروسة" (أبوبكر الطرطوشى- سراج الملوك- الباب السابع- صـ ١٥٦). أما الإمام أبو الحسن الماوردى فيقول فى كتابه الأحكام السلطانية "إن أهل الرأى متى عقدوا البيعة للإمام، لا يجوز لخلوق نقضها، لأن الرعية عليها بموجب هذه البيعة

الطاعة والنصر للإمام ما وسعتهم الطاعة ولا يحل القيام عليه بحال من الأحوال". وكذلك كان الحال مع العديد من فقهاء الخليفة.

أما الشعراء وهم رموز الثقافة فى ذلك الزمان فقد أمعنوا فى تملق الخلفاء ووضعوا كل موهبتهم فى خدمتهم ونقرأ:

إن الخليفة قد أبى
وإذا أبى شيئاً أبيته

وأيضاً:

أبوك خليفة وكذاك جدك
وأنت خليفة وذاك هو الكمال.

والفرزدق يقول:

فالأرض لله ولاها خليفته
وصاحب الأرض فيها غير مغلوب.

ويتفوق عليه جرير فى نفاق الخليفة قائلاً:

ذو العرش قدر أن تكون خليفة
وملكت فاعل على المنابر واسلم

أما ابن هانئ الأندلسى فيتفوق على الجميع فى نفاق يصل إلى حد الهرطقة:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبى محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

وما أردت من هذه الفتاوى والقصائد إلا أن أقدم بعضاً قليلاً من الثمار المريرة للحكم المطلق المغلف بغطاء دينى كثيف يزعم بأن الخلافة هى جزء من شعائر الإسلام بما يجعل الخليفة حاكماً متحكماً لأنه يحكم باسم السماء فيمضى الأمر به إلى "فاحكم فأنت الواحد القهار" ويمضى بنا البعض أو يحاولون إلى ذات المصير.

ولعل هذه السلطة المطلقة هى التى أطمعت الكثيرين حتى الإخوة والأمهات فى الاستيلاء على موقع الخلافة عبر القتل والنتائج الرقمية توضح ثمار هى الشهوة. فعدد الخلفاء الأمويين ١٤ والعباسيين ٢٢. والمجموع ٣٦ خليفة قتل منهم ١٧ غيلة. والكارثة أن القتلة كانوا إخوة أو أبناء عم، بل إن إحدى الأمهات اغتالت ابنها الخليفة لأنه لم يقتسم معها السلطة لتأتى بابن آخر ضعيف.

وكما أردت من ذلك كله إلا إيضاح الثمار المريرة لاختراع فكرة الخلافة واختراع سلطانها المطلق المتحدث باسم السماء.

ويبقى بعد ذلك أن نحاول الكتابة عن علاقة فكرة الخلافة بمصر، ففيها ما هو أكثر بطشاً وأكثر إيلاماً.

* * *

كان سلطان مصر فى هذا الزمان قنصوة الغورى وكان يقوم كل عام بالواجب المصرى وهو رعاية الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة والقدس.

وكان حاكم مصر يشرف بنفسه على صناعة كسوة الكعبة وتسفيرها فى احتفال مهيب مع ركب المحمل. وأتى البريد إلى

قنصوة بأن الخليفة العثماني يحشد حشوده لغزو مصر فوجه رسالة إلى سليم الأول جاء فيها "علمنا أنك جمعت عساكرك، وأنك عزمت على تسييرهم علينا، فتعجبت نفسنا غاية التعجب لأننا والحمد لله من سلاطين أهل الإسلام وتحت حكمنا مسلمون موحدون".

ويرد عليه الخليفة العثماني كاذباً "يعلم الله وكفى به شهيداً أنه لم يخطر ببالنا طمع في أحد سلاطين المسلمين أو مملكته، أو رغبة في إلحاق الضرر به فالشرع الشريف ينهى عن ذلك" (ابن إياس- بدائع الزهور في وقائع الدهور- الجزء الثاني- صـ١٢٤)، لكن الحقيقة هي أن الخليفة العثماني كان مصمماً على غزو مصر. ولم يكن ينتظر سوى فتوى شرعية تسمح له بأن يقوم بغزو بلد يسمي سلطانه نفسه بأنه "خادم الحرمين الشريفين"، ويقوم بكسوة الكعبة، ويحتضن الأزهر الشريف.

وأخيراً عثر الخليفة على ضالته في فتوى مثيرة للسخرية جاءت على يد قاضي عسكر الأناضول كمال باشا زاده استند فيها إلى الآية الكريمة "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" والأرض هي مصر لأنها وردت في آية قرآنية مشيرة إلى مصر. أما "عبادي الصالحون" فهم طبعا العثمانيون. وسارع مفتي الآستانة إلى مساندة فتوى قاضي العسكر فأصدر فتوى تقول "من مفتي الأنام شيخ الإسلام فتوى بوجوب غزو مصر لأن أهلها قطاع طرق، والقتال ضدهم غزو جهاد والمقتول في هذه

الغزوة شهيد ومجاهد"، وتقترب الجيوش العثمانية من مصر ويرسل سليم الأول إلى حاكمها آنذاك طومان باى رسالة يقول فيها "إن الله قد أوحى إلىَّ بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين وأنا خليفة الله فى أرضه، وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين".

ويروى ابن إياس فى كتابه فظائع مخيفة ارتكبها جنود الخلافة ضد المصريين، ونقرأ و"اتجه الجنود العثمانية إلى الطحانين فأخذوا البغال والخيول، وأخذوا جمال السقايين، ونهبوا كل ما فى شون القمح من غلال، ثم صاروا يأخذون مواشى الفلاحين ودجاجهم وأوزهم وأغنامهم وحتى أبواب بيوتهم وخشب السقوف أخذوه، وأرسل سليم واحداً من أكثر رجاله وحشية هو جان بردى الغزالى إلى الشرقية"، ونعود إلى ابن إياس ليصف ما حدث "فوصل جان بردى الغزالى إلى نواحى التل والزمرونين والزنكلون ونهب ما فيها من أبقار وأغنام وأوز ودجاج، وقام بأسر الصبيان وسبى البنات باعتبار أنهم أبناء كفار وراح يبيعهم فى أسواق المحروسة بأبخس الأثمان.

وسارع المصريون بشرائهم من سوق العبيد والجوارى ثم يهبونهم لأهاليهم. وترك سليم الأول ممثلا للوالى التركى يقول عنه إبن إياس إنه كان سكيراً شرساً "وكان يصبح كل صباح وهو مخمور فيحكم بالعسف والظلم وهو مخمور" ويلخص إبن إياس ما فعله جند الخلافة فى مصر قائلاً "لقد أشعلوا فى مصر جمرة نار" ولعل هذه

الأيام هى التى لقنت المصريين شعاراً ظلوا يهتفون به أمداً طويلاً "يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى".

وتظل العلاقة المصرية- العثمانية على الدوام علاقة خصومة، فالمصريون يهتفون فى أعماقهم "يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى"، لكنهم يواصلون الخضوع للخليفة العثمانى باعتباره خليفة للمسلمين وأمير المؤمنين. ووجد المصريون أنفسهم فى هذا التناقض المربك حتى كانت الثورة العرابية. ومنذ البداية حاول عرابى ألا يصطدم بالخليفة، ويروى ويلفرد بلنت أشهر مؤرخى الثورة العرابية "أكد لى عرابى: نحن جميعا أبناء السلطان نعيش كأفراد أسرة واحدة فى بيت واحد، كل منا له إقليم من الإمبراطورية، أى له حجرة مستقلة فى المنزل، وهى حجرة خاصة بنا نتصرف فيها وفقاً لإرادتنا ويجب ألا نسمح لأحد بأن يعبث بسيادتنا أو وضعنا المستقل" (بلنت- التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر- بالإنجليزية- صـ٧٠).

ويكتب صابونجى إلى بلنت رسالة أكثر وضوحا أن العرابيين يتملقون السلطان ويعلنون ولاءهم له كخليفة للمسلمين لكن الحقيقة هى أن السلطان لا يعنيهم فى شيء وحين يحسون بقوتهم سيعلنون إقامة حكومة جمهورية؟(المرجع السابق - ص٤٧).

وينتشر نفوذ عرابى ليس فى مصر وحدها بل فى عديد من البلدان ووصل نفوذه الجماهيرى حتى الهند والسودان ولهذا كره الخليفة عرابى وأرسل حملة إلى مصر لتأديبه. وتصل الحملة إلى

اللاذقية ويصف مراسل التايمز اللندنية موقف السكان منها قائلا "لقد حدث هيجان شديد وأعلن السوريون مقاطعتهم للحملة وامتنعوا عن التعامل معها، وأظهروا الجفاء والامتهان لها لأنها خرجت لمحاربة مسلمين. وخرج عن القاعدة أحد كبار التجار فباع للجنود العثمانيين لحوما وطعام فلم ينته اليوم حتى احرقت كل متاجره وكان الرجل يصرخ كالمجنون طالبا النجدة فيبصق الناس فى وجهه قائلين اطلب النجدة من سادتك الأتراك" المتحدث البريطاني. ملف F.O. 371 وفي الوقت الحرج تماما وبينما الجيوش البريطانية تغزو مصر وجيش عرابى يحاول المقاومة تصل إلى مصر آلاف من نسخ جريدة "الجوائب" وهى الجريدة الرسمية للخلافة الناطقة باللغة العربية ويقوم بتوزيعها على جنود عرابى ومناصريه عملاء الخديوى توفيق وفى صدرها ما يلى " بيانامه بإرادة سيدنا ومولانا السلطان أمير المؤمنين وخليفتنا الأعظم إشعارا لجميع المسلمين بأن الأفعال التى أجراها عرابى وأعوانه فى مصر مخالفة لإرادة الدولة العلية السلطانية ومغايرة لمصالح المسلمين وبناء على ذلك تقرر أن عرابى وأعوانه عصاة بغاة وبهذه الصفة تجرى معاملتهم" وتكون الضربة قاضية فكثير من المواطنين والجنود ترددوا بعد أن اتهمهم الخليفة أمير المؤمنين بأن من يقف مع عرابى عصاة بغاة. وانتصر الإنجليز.

وظل المصريون يرددون فى قلوبهم "يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى" ويرددون معها "الولس هزم عرابى".

وكما كانت الخلافة الأخيرة تركية فقد انتهت على أياد تركية. وأعلن كمال أتاتورك إسقاط دولة الخلافة، ونفى الخليفة إلى منطقة نائية وينهض ولى الدين يكن، أحد أشهر دعاة الليبرالية فى مصر، وهو تركى الأصل، هاتفاً:

سلاما أيها النافى الرعايا ولا تجزع فخالقهم نفاكا

وما أنا شامت بك حين تبكى كمن شمتوا ولكن ذا بذاكا

وبالمقابل اجتمع بعض علماء الأزهر وأصدروا بياناً يؤكدون فيه "بطلان ما قام به الكماليون لأن الخليفة قد بويع من المسلمين ولا يمكن خلعه" "محمد حسين- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر- الجزء الأول- صـ٤٧".

ويرد عليهم شوقى شعراً:

مضت الخلافة والإمام فهل مضى

ما كان بين الله والعباد

والله ما نسى الشهادة حاضر

فى المسلمين ولا تردد شادى

والصوم باق والصلاة مقامة

والحج ينشط فى عناق الحادى

وكان موقع الخلافة الخالى قد أسال لعاب الكثيرين ومنهم ملك الأفغان أمان الله، وملك الحجاز حسين بن على، لكن الملك فؤاد قرر أن يكون الخليفة، فنسى الشيوخ الغاضبين من خلع الخليفة غضبهم، وقاموا بالدعوة لتنصيب الملك فؤاد خليفة وقرروا دعوة ممثلى جميع

الأمم الإسلامية إلى مؤتمر يعقد فى القاهرة برئاسة شيخ الأزهر للبحث فيمن تسند له الخلافة ومكان وجوده، وحددوا شهر شعبان من العام التالى لانعقاده" (المنار- مجلد ٢٥- ١٩ شعبان ١٣٤٢هـ- ٢٥ مارس ١٩٢٤)، وتمضى عجلة الإعداد للمؤتمر مدعومة من القصر والأزهر وفى ربيع أول ١٣٤٣هـ (أكتوبر ١٩٢٤) تصدر نشرة باسم "المؤتمر" مهمتها الترويج لمؤتمر الخلافة، ويكتب الشيخ رشيد رضا فى صدر العدد الأول قائلاً "إن المؤتمر سيضم علماء الدين والدنيا من كل الأمم الإسلامية، خاصة أن مهمته هى وضع قواعد للحكومة الإسلامية المدنية، التى يظهر فيها علو التشريع الاسلامى، واختيار خليفة وإمام للمسلمين". لكن المعادين للخلافة كانوا كثيرين فسعد زغلول رئيس الوزراء رفض الفكرة، وحلفاء الملك سياسياً من خصوم الوفد وهم "الأحرار الدستوريين" عارضوها وتكتب جريدتهم السياسة "إن الدستور ينص على أنه لا يجوز للملك أن يتولى مع ملك مصر أمور دولة أخرى بغير رضاء البرلمان، ومن ثم يتعين ترك هذه المسألة للسياسيين، وأن يكف علماء الأزهر عن دعوتهم" (السياسة- مارس ١٩٢٦)، وبرزت مطامع ملوك وأمراء لدول إسلامية ترفض تولى فؤاد، ويطلب كل منهم أن يكون خليفة. ثم ينهض شيخ أزهرى هو الشيخ على عبد الرازق ليكتب مقالاً فى السياسة يقول فيه "كانت مسألة الخلافة أولاً دفاعاً عن مقام معين يراد الاحتفاظ به كأثر يحتاج إلى العناية وكمريض يحتاج إلى الرعاية، لكن المسألة انتقلت إلى وضع آخر،

واتجه الرأى إلى العمل لإيجاد مقام جديد، لأن أناساً يريدون أن يبقى فى الوجود ذلك الشىء" (السياسة- المرجع السابق). وهاجمت الصحف الوفدية المؤتمر الذى كان انعقاده إشهاراً لوفاة فكرة الخلافة، فالحضور هزيل والنتائج هزيلة، وفشل الملك فؤاد فى تحقيق طموحه. لكن البعض كان يظل ملحاً على فكرة الخلافة، وكان الشيخ على عبدالرازق، عضو هيئة كبار العلماء وهو ليبرالى الموقف، قد أصدر كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم"، الذى بدد فيه كل دعاوى أصحاب دعوة الخلافة ونقرأ فى الكتاب "الحكم والحكومة والقضاء والإدارة ومراكز الدولة هى جميعاً خطط دنيوية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة" "صـ١٠٢" ويقول "إذا كان فى الدنيا شىء يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم ويسهل عليه العدوان والبغى، فهو مقام الخلافة الذى معه لا شىء إلا العسف ولا حكم إلا السيف" "صـ٢٨" ويقول "إن شعائر الله تعالى ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذى يسميه البعض (خلافة) و(خلفاء) فليس من حاجة إلى تلك الخلافة فى أمور ديننا ولا لأمور دنيانا .. فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين، وينبوع شر وفساد" "صـ٣٦". وقامت الدنيا ولم تقعد ضد الكتاب والكاتب. غضب الملك وغضب معه وله عديد من شيوخ الأزهر، وكتب رشيد رضا محرضاً "لا يجوز لمشيخة الأزهر أن تسكت عن

هذا الكتاب لئلا يقول صاحبه وأنصاره إن سكوتهم عنهم إجازة له، أو عجز عن الرد عليه" "المنار- ٢١يونيو ١٩٢٥" وسريعاً يصدر الشيخ الخضر حسين كتاباً بعنوان "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" وأهداه دون تردد إلى "حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر الأعظم طالباً منه حماية الشريعة بالحجة والحسام". وجاء الحسام عبر هيئة كبار العلماء بالأزهر التى استدعت المؤلف وحاكمته وصدر حكمها فى ١٢ أغسطس وقررت "نزع شهادة العالمية منه ومحو اسمه من سجلات الأزهر وطرده من كل وظيفة، لعدم أهليته للقيام بأى وظيفة دينية أو غير دينية"، وأسرع شيخ الأزهر ليبرق للملك بالحكم "شاكراً له غيرته على الدين من عبث العابثين وإلحاد الملحدين وحفظ كرامة العلم والعلماء".

لكن القصة لم تنته، ففى عام ١٩٤٧ كان حزب الأحرار الدستوريين شريكاً قوياً فى الحكومة، وكان يرغب فى تعيين الشيخ عبد الرازق وزيراً، وبناء على أمر الدكتور محمد حسين هيكل اجتمعت هيئة كبار العلماء ومعها المجلس الأعلى للأزهر فى ٢٥ فبراير ١٩٤٧ ووجهوا رسالة للملك فاروق جاء فيها "إن المجتمعين يلتمسون من جلالة الملك وفضله غزير على الأزهر والأزهريين أن يتفضل فيعفو عن الأثر المترتب على الحكم الذى أصدرته هيئة كبار العلماء منذ ٢٢ عاماً"، وقبل الملك الالتماس وصدر مرسوم ملكى فى ٣ مارس ١٩٤٧ بتعيين الشيخ عبد الرازق وزيراً للأوقاف.

وهكذا ثأر الشيخ لنفسه ولكتابه.

ونتأمل الحكاية المصرية كيف بدأت بأطماع ملك كان الأزهر وقودها، ثم انتهت بمرسوم ملك أراد مجاملة حكومة أقلية وكان الأزهر وقودها أيضاً.

ومع ذلك تبقى مسألة الخلافة لتخبوا ثم تعود وتحتاج إلى مزيد من المواجهة.

* * *

وبرغم كل شيء يبقى البعض متمسكًا بهذا الوهم ليس عن عشق وإنما عن مصلحة. فهذا الوهم يمنحهم وهمًا أكبر.. هو إمكانية وصولهم للسلطة، وأن يصبح أميرهم أو مرشدهم ليس مجرد مرشد لجماعة كبرت أو صغرت وإنما أميراً للمؤمنين جميعًا وفي شتى أقطار الأرض. وفي كتابه "الكامل في التاريخ" أورد ابن الأثير ما قال إنه حوار دار بين عمر بن الخطاب في أول أيام خلافته وبين المغيرة بن شعبة.. فقال:

ناداه المغيرة "يا خليفة الله" فرد عمر: ذاك نبي الله داود. فقال المغيرة: يا خليفة رسول الله فأجاب عمر "ذاك صاحبكم المفقود (يقصد أبا بكر)، فقال المغيرة إذن أناديك: يا خليفة خليفة رسول الله، فقال عمر: ذاك أمر يطول، فما كان من المغيرة إلا أن ناداه: يا عمر. فقال عمر: لا تبخس مكاني شرفه. أنتم المؤمنون وأنا أميركم". ومن ساعتها ناداه المسلمون "يا أمير المؤمنين".

ولنا على ذلك الحوار ملاحظتان الأولى هي أن هذه التسمية صناعة إنسانية أتت عبر حوار وأخذ ورد وربما كان للحوار أن يتوصل

إلى تسمية أخرى. أما الملاحظة الثانية فهى أن هذا المنصب ما لبث أن تحول وبعد رحيل ابن الخطاب إلى موقع سياسى تصارعت حوله قوى سياسية وقبلية كل أراده لنفسه أو لجماعته. ولأن الخلاف على الخلافة كان تعبيراً عن مصالح بشرية فقد نسى أصحابه أى طابع دينى له وتباروا فى صراعات مريرة خلت من أى وازع دينى وإن ظلت تستخدم الدين طلاء لذات الأفعال المنافية للدين.

وكانت الثمار مريرة فالخلفاء الأمويون كانوا ١٤ والعباسيون ٢٢ أى أن مجموعهم ٣٦ سبعة عشر منهم قتلوا غيلة، لكن الأكثر مرارة هو أن غالبيتهم كانوا من الأقارب والأبناء والأخوة.. سعياً وراء المنصب بل إن أما قتلت إبنها فى هذا الصراع المرير والدائم على السلطة. الأمر الذى دفع بالصحابى الزاهد أبو ذر الغفارى إلى القول "والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هى من كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إنى لأرى حقًا يطفأ، وباطلاً يحيا، وصدقًا مكذبًا وأثره يغير تقي".

وفى خضم هذه الصراعات التى تذكرنا بصراعات القصر فى كل مكان وجدت فيه سلطة مطلقة فى العالم ظل اسم "أمير المؤمنين: مستخدمًا بالحق والباطل. وتمسك به أو بالدقة تمسح به حكام لولايات صغيرة كل منهم وأيًا كان اقترابه من الدين أو ابتعاده عنه أسمى نفسه "أمير المؤمنين". فى إمارات الشام والعراق حتى الأندلس ظلت هذه التسمية مستخدمة.

ولم تزل حتى عصرنا الحديث تستخدم، برغم إصرار كبار الفقهاء على رفض فكرة الخلافة وعلى رأسهم فى العصر الحديث

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى قال "إن الإيمان بالله يرفع الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية، وهى دعوى القداسة والوساطة عند الله، دعوى التشريع والقول على الله بدون إذن الله، فالمؤمن لا يرضى أن يكون عبداً لبشر مثله".

ومع ذلك وحتى بعد أن اختفت دولة الخلافة العثمانية ظل موضوع الخلافة محل جدل بل وحاول البعض إقامتها تبعًا لذات الفكرة التى أوحت لحاكم مدينة صغيرة أن يسمى نفسه أميراً للمؤمنين.. كل المؤمنين فى كل العالم.

ولعلنا نذكر محاولة صالح سرية للاستيلاء على السلطة فى مصر ببضعه طلاب من الكلية الفنية العسكرية. فهو قد لقن هؤلاء الطلاب فى كتابه المسمى "رسالة الإيمان" ان التآمر "القومي" و"الوطني" مع "الاستعمار الغربى والماسونية قد حطم الخلافة العثمانية.

ومن ثم فقد هاجم كتابه كل رموز الوطن والوطنية وأسماها طقوس الشرك الجديدة ويقول "فى كل الحكومات اليوم طقوس تعيد إلى الأذهان طقوس عبادة الأصنام ومنها "تحية العلم حيث يقوم أفراد الجيش والشرطة والطلاب بأداء التحية لقطعة قماش تسمى علم الدولة ويصبح العلم فى هذه الحالة كأنه صنم تجرى عبادته". وبذات المنطق قام صالح سرية بتكفير السلام الجمهورى أو الملكى أو الأميرى وتحية قبر الجندى المجهول. وبهذا المنطق أيضًا أدان بالكفر

كل من وقف فى مواجهة دولة الخلافة فالقومية العربية وأية قومية أخرى كفر. والديمقراطية كفر. ثم يقول: "وكل من اشترك فى حزب عقائدى فهو كافر لاشك فى كفره فالأحزاب الاشتراكية والشيوعية والبعثية والقومية والاتحاد الاشتراكى كلها كافرة وكل من انضم إليها كافر، وكل من دعا للاشتراكية أو الرأسمالية كافر. وعلى أنقاض هؤلاء جميعًا أوطانًا وأحزابًا وحكامًا ستقوم دولة الخلافة أما سلاح دولة الخلافة فقد كان ثمانية عشر طالبًا من طلاب الفنية العسكرية، ورسم لهم خطة ساذجة للاستيلاء على السلطة ليتوج نفسه بهم أمير للمؤمنين، والمثير للدهشة أنه صدق نفسه، صدقها إلى درجة أنه ضبط معه عند القبض عليه بعد فشل المحاولة بيان يقول فيه "أيها الشعب الحبيب" أيتها الأمة المجاهدة الصابرة: لقد نجحنا والحمد الله صباح اليوم فى السيطرة على الحكم واعتقال جميع المسئولين عن النظام السابق".

ومثله أيضًا شكرى مصطفى، وكان مسجونًا من جماعة الإخوان وتتلمذ على أفكار الأستاذ سيد قطب وأسس تنظيمًا أسماه الجماعة المسلمة (التكفير والهجرة) وهو لم يكتف فقط بالدعوة إلى دولة الخلافة بل نصب نفسه أميرًا للمؤمنين واسمى نفسه "أمير آخر الزمان" وأنه أمير "الفرقة الناجية" وهو يؤكد فى كتابه "التوسمات" الذى تركه مخطوطًا ضمن مخطوطات أخرى (لأن المطبعة عتاد كافر) أن الإسلام إختفى من الأرض إلا من أعضاء جماعته وأن الإسلام سيعود إلى الأرض مرة ثانية، سيعود كما بدأ وبنفس

الطريقة التى بدأ بها. ويتمادى شكرى مصطفى فى توسماته فيرفض مبدأ التعلم من أجل إعمار الدنيا" وأى علم ليس من أجل الآخرة هو عبث وشرك" وحتى فى القتال من أجل إقامة "دولة الخلافة" التى أسماها "دولة آخر الزمان" فإن القتال يكون كما فعل الرسول: بالسيف، والخيل، وسوف يحارب هو برجاله صفًا فالقتال فى الصف متعلق بمحبة رسول الله. أما الطائرات والدبابات والقنابل الذرية والمناورات الحربية "فكلها أصول جاهلية أتت نتاجًا لمعصية الله، وأعدت بأموال كافرة وأصول كافرة، وقد صنعتها الجاهلية بجاهليتها وليست بإيمانها وتقواها". لكن المثير للدهشة أنه عندما أختطف الشيخ الذهبى قتله بعتاد كافر وهو المسدس.

وينسج شكرى مصطفى قصصًا خرافية عن اقتراب موعد خلافته على العالم أجمع، فعلامات القيامة تتحقق. ثم يكون المسيح الدجال وهو أعور وله علامات حددتها كتب السنة.. وبعدها يكون ظهور "جماعة الحق" .. "جماعة آخر الزمان" وأميرها أمير آخر الزمان هو السيد شكرى مصطفى.. لكن أمير آخر الزمان يقبض عليه، ويعدم.

لكن وهم الخلافة يبقى، بل ويتحقق لأمير آخر فى أفغانستان هو الملا عمر والملا هو طالب الدين الذى لم يتم تعليمه أما المولوى فهو الطالب الذى أتم تعليمه وتخرج عالمًا فى الشريعة. نحن إذن إزاء مجرد طالب فى مدرسة دينية ومع ذلك أسمى نفسه رسميًا "المجاهد الأكبر، خادم الإسلام، أمير المؤمنين ملا محمد عمر المجاهد". وقد

أسس ملا عمر إمارته على أنقاض المتصارعين على السلطة فى أفغانستان من "المجاهدين" بعد انسحاب الجيوش السوفيتية، وكان صراعهم وحشيًا. وقد بدأ حركته فى قرية "كشك نخود" حيث أخذ قطعة من قماش أبيض كتب عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ورفعها على أحد مبانى القرية معلنًا قيام حركته التى تجمع حولها خمسون طالبًا. وبهم أسس دولة الخلافة التى تزايد عدد جنودها ليصل إلى ٣١٣.

ونطالع بعض معلومات عن هذه الإمارة وردت فى كتاب "طالبان العمائم والمدافع والأفيون" لمؤلف مصرى هو الأستاذ عبدالحليم غزالى وربما كان هذا الصحفى أحد القلائل الذين تلقوا "بشارة" اللقاء مع الملا عمر وأجرى معه حواراً، ويعتقد الطلبانيون أن من يقابل الملا ولو مرة واحدة لن يدخل النار مهما فعل. والمعلومات والمواقف كل منها مثير للدهشة، وفى هذا الكتاب نقرأ "عارف الله العارف نائب وزير الاقتصاد لم يدرس الاقتصاد وليس لديه أية إحصائيات أو أرقام. وعندما سأله الصحفى عن رأيه فى "العولمة" قال أنها أول مرة يسمع فيها هذه الكلمة. وملا محبوب الله رئيس فرع البنك الوطنى فى قندهار لم يدرس الاقتصاد ويقول ببساطة: ذهبت إلى كابول وتعلمت كيف تحفظ الأموال، وهو لا يعرف معنى كلمة تضخم، أما مبادئ الإمارة فهى ترفض الانتخابات فهى بدعة نصرانية، وكذلك الديمقراطية والأمير يستمع لأهل الشورى لكنه فى نهاية الأمر يعمل برأيه و إعمالاً لقوله تعالى: "فإذا عزمت

فتوكل" - لا يجوز تصوير ما فيه روح - الغناء والموسيقى ممنوعان - وقد سمح الأمير بزراعة الأفيون والاتجار فيه، وتحصل الإمارة على ذكاة الزروع من منتجيه وهى العشر ويقدر تقرير الأمم المتحدة أن إنتاج الأفيون قد زاد بنسبة ٨٤٪ فى ظل حكومة طالبان وبلغت قيمته ١٠٠ مليون دولار ، أما عن دور أسامة بن لادن فى هذه الإمارة فهو معلوم بما لا يحتاج إلى مزيد من الإيضاح.. وكذلك مصير دولة الخلافة ومصير أميرها المجاهد الأكبر خادم الإسلام أمير المؤمنين.

وتمثل جماعة الإخوان أحد أهم القوى المعاصرة التى تنادى بفكرة الخلافة وضرورة بعثها وقد امتازت بأنها أقامت تنظيماً دولياً على نمط الخلافة المنشود. وتقول الوثيقة المعنونة "النظام العام للإخوان المسلمين" الإخوان المسلمون فى كل مكان جماعة واحدة تؤلف بينها الدعوة ويجمعهم النظام الأساسي"

أما المادة الثانية فتقول "الإخوان المسلمين هيئة إسلامية جامعة تعمل لإقامة دين الله فى الأرض" ونواصل القراءة فى أهداف الجماعة منها "تحرير الوطن الإسلامى بكل أجزاءه.. والسعى إلى تجميع المسلمين جميعاً حتى يصيروا أمة واحدة" (ونلاحظ وطن إسلامى واحد وأمة واحدة على نطاق العالم). وتهدف الجماعة إلى "إعداد الأمة إعداداً جهادياً لتقف جبهة واحدة.. تمهيداً لإقامة الدولة الإسلامية الراشدة" م٣ توضح الوثيقة الهيكل التنظيمى الذى يقف على رأسه المرشد العام ومراقب عام فى كل قطر والمراقبون أعضاء فى مجلس الشورى العام" م١١ ويتشكل مكتب الإرشاد العام من

١٣ عضواً ثمانية أعضاء من مصر وخمسة يراعى فى اختيارهم التمثيل الإقليمي. والجميع فى كل الأقطار ملزمون باتباع تعليمات مكتب الإرشاد العام حول الأهداف والسياسات العامة وموقف الجماعة من مختلف الاتجاهات والتجمعات والقضايا المتنوعة أما التفاصيل فمتروكة لإخوان الأقطار فأهل مكة أدرى بشعابها.

وهكذا أقامت الجماعة خلافتها الخاصة بها على امتداد وجودها فى مختلف الأقطار سعياً وراء إقامة دولة الخلافة. ويبقى أن هذا التنظيم الدولى الذى يمنح الجماعة نفوذاً وتمويلاً واتساعاً فى مجالات الحركة، يمثل فى ذات الوقت أعباء لعل أقلها أنه يضع الجماعة وحكمها فى موقع الالتزام بما قد يؤثر على التزاماتها المصرية مثلما يجرى الآن من مجاملات لحركة حماس متمثلاً فى الأنفاق التى تعبث بالسيادة المصرية وتعبئ فى أرض سيناء قوى إرهابية تهز أركان السيادة المصرية هناك وتهدر أمن مصر كلها.

وإذ يتجدد الحديث عن الخلافة، وتشمل مساحات عدة من جدران المدن المصرية كتابات تقول "الخلافة فرض" كان من الضرورى أن نتساءل كيف؟

كيف يمكن أن يكون هناك خليفة لكل مسلمى العالم حيثما وجدوا؟ ذلك أن منطق الخلافة هو قيام خليفة واحد لكل المسلمين، يحصل على بيعتهم جميعا ويدينون له جميعا بالسمع والطاعة؟

ثم ما هو الحل مع الامتداد الجغرافى من جهوريات أسيا الوسطى الإسلامية المنفرطة عن الاتحاد السوفيتى السابق إلى افغانستان

فباكستان فاندونيسيا وصولا إلى تركيا إلى مصر إلى المغرب امتدادا حتى جيبوتى وجزر القمر بالاضافة إلى كل الاقليات الإسلامية فى كل انحاء العالم. وكيف تتم البيعة، وكيف يحكم الخليفة مع الحواجز الوطنية والجغرافية واللغوية؟

وما وضع المسلمين فى دولة كاليونان أو فرنسا وهم مواطنون لهم انتمائهم الوطنى وما يترتب على ذلك من التزامات يكون الولاء للخليفة فى المنشط المكره فى تناقض معها. مثل أداء الخدمة العسكرية والضرائب والترشح فى الانتخابات...إلخ؟

وما هو مدى امكانية خضوع المسلم الصومالى والموريتانى أو الاكوادورى مثلا لقرارات الخليفة. ومدى قدرة الخليفة على اصدار قرارات تتماشى مع الجغرافيا والتاريخ والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى كل البلدان التى فيها مسلمون. ومدى قدرة المسلمين على الالتزام بهذه القرارات معرضين وضعهم كمواطنين فى هذه البلدان إلياخطر أو حتى سوء الفهم؟

وفوق هذا وذاك ما علاقة الخلافة بالإسلام كمعتقد ديني؟ والاجابة لا علاقة للإسلام باختراع موهوم.